تأصلت فى الدم :

العشرة الطيبة

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

منذ زمن طويل والكتاب يدعون استوديو مصر إلى إخراج العشرة الطيبة للسينما ، وقد كان رجال الاستوديو يترددون دائماً حيال هذه الأوبريت الرائعة ويشفقون من إخراجها بسبب واحد وهو أن قصة العشرة الطيبة تصور الحياة المصرية فى حقبة من الزمن لا تشرف المصريين ، وهى تلك الحقبة التى حكمها فيها الأتراك والمماليك معاً ، والتى كان هؤلاء الحكام يعبثون فيها بحقوق الناس عبثاً شديداً سخيفاً ضعف إزاءه المصريون ، واستلانوا له وجعلوا شعارهم معه قولهم : « من تزوج أمى قلت له يا عمى » وقولهم : « إن كانت لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى » ...

ولقد حاولت أكثر من مرة وفى أكثر من صحيفة أن أنزع من أذهان رجال استوديو مصر هذه الكرامية الخاطئة التى يصبونها على العشرة الطيبة لهذا السبب وحده ، ولعلى ضربت لهم يوماً مثلاً برواية هنرى الثامن التى مثلها شارلس لاوتون لإحدى الشركات الإنجليزية ، والتى لم يتورع ذلك الممثل الإنجليزى الكبير حين مثلها أن يصور هنرى الثامن الملك الإنجليزى بصورة هى أقرب الصور لما كانت عليه حقيقة هذا الملك ، ولم تكن حقيقة هذا الملك مفخرة من مفاخر بريطانيا العظمى ، ولا مثلاً طيباً لحكامها وملوكها ، وإنما كانت حياته كما روى التاريخ وكما أظهرتها السينما حياة كلها صيد وزواج ، وأكل ، وطلاق ، وفتك بالنساء وبالحيوان وبانتقاليد ، واستخفاف بشريعة النصارى التى لا تبيح انفصال الزوج عن زوجه إلا للسبب الشنيع الواحد الذى لم يحاول هنرى الثامن مطلقاً أن يجعله وسيلة إلى التخلص من نسائه لأنه كان يرى نفسه فوق التحقيق والتدقيق واستقصاء الأسباب وإبداء الأعذار ...

ومع هذه البشاعة كلها ، ومع هذه العتمة والظلمة والسواد فإن الإنجليز لم يكرهوا شارلس لاوتون ، لأنه أخرج هنرى الثامن على حقيقته ، بل إنهم على العكس من ذلك أحبوه وقدروه ، وبدأوا منذ أخرج هذا الفلم يعتبرونه فنانهم الأول فى هذا العصر ، وهنرى الثامن ذات حقيقية فعل بها شارلس لاوتون هذا كله تحت أعين الإنجليز وأسماعهم ، بل إنه استعان على فعله هذا بأموالهم وبكفايات الذين ساعدوه من رجالهم . أما « العشرة الطيبة » ، فليس فيها ذات حقيقية واحدة ممن يعتز بهم التاريخ المصرى ، أو ممن ينسبون إليه ويخشى إن هو أظهرهم للناس أن يلصقوا به نقائصهم وعيوبهم ... وإنما هى قصة خيالية تصور كاتبها المرحوم محمد تيمور أن حوادثها جرت فى مصر ، وقد كان يستطيع أن يتصورها جرت فى الهند ، كما كان يستطيع أن يتصورها جرت فى كوكب آخر غير هذه الأرض ، لولا أنه آثر أن تكون حين تنسب إلى مصر أقرب إلى نفوس المصريين ، وأشد إغراء لهم بالإقبال عليها والاستمتاع بها . وقد كانت « العشرة الطيبة » فعلاً من أحجار الأساس الأولى التى وضعت فى بناء المسرح المصرى

وقد ترامى إلينا أن استوديو مصر بدأ يفكر فى هذه الأيام فى إخراج العشرة الطيبة ، وأن رجاله بدأو يتخلون عن تلك الفكرة العجيبة التى ظلوا يتشبثون بها زمناً طويلاً والتى حالت بينهم وبين إخراج « العشرة الطيبة » هذا الزمن الطويل ، ولا ريب أن استوديو مصر إذا نفذ هذه الفكرة فإنه سيفتح بها فتحاً جديداً فى تاريخ أوبريت السينما فى مصر ، ففى هذه الرواية مجموعة من الألحان يشهد الموسيقيون المصريون جميعاً قبل النقاد وقبل الجمهور بأنها خلاصة الموسيقى التمثيلية المصرية ، وأول من شهد بهذا هو المرحوم الشيخ سيد درويش الذى وضع موسيقى هذه الأوبريت . فقد سئل رحمه الله يوماً بعد أن أنشأ لنفسه فرقة خاصة أخرج فيها روايتى « البروكة » و « شهرزاد » عن أحب آثاره الفنية إليه فقال إنها العشرة الطيبة ، وكان السائل يحسبه سيقول

عن إحدى هاتين الروايتين اللتين أعدمها لنفسه ولفرقته واللتين لم تأخذهما منه فرقة من الفرق

وإنني لا أشك في أن سيد درويش رحمه الله كان على حق في تفضيله للعشرة الطيبة على غيرها مما لحن ، فهي أسفى وأنقى من كل رواياته ، ونفسه منطلقة في ألحانها كل الانطلاق لا يقيدها قيد ولا يكتفها شرط

ولعل القراء يعرفون أن موسيقى سيد درويش كانت تصيبها أحياناً آفات لم يجد سيد درويش نفسه بدأ من أن يسمح لها بأن تصيب فنه ، بل إنه هو الذي كان يبلو فنه بهذه الآفات ، لأن احترافه التلحين للفرق المختلفة هو الذي كان يجبره عليه . وهذه الآفات تظهر بموازنة ألحان سيد درويش للفرق المختلفة بعضها ببعض . فألحان سيد درويش لنيرة المهدية ، غير ألحانه للريحاني ، غير ألحانه « للمكاكشة ...» وذلك يرجع إلى أن سيد درويش كان يتقمص أبطال الغناء والتمثيل حين يلحن لهم ، وكان يتدفق في تلحينه لهم بروح هي أقرب إلى أرواحهم منها إلى روحه هو ، وبأسلوب هو أقرب إلى أساليبهم منه إلى أسلوبه هو ، وليس معنى هذا أن سيد درويش كان يفقد نفسه في هذه الألحان التي كان يعطيها غيره ، وإنما معناه أنه كان يتنكر بصور مختلفة في أثناء تلحينه ... ومن هذه الصور ـ صور المغنين والممثلين ـ ما هو خفيف جميل رائع ، ومنها ما هو ثقيل سمج أقتم الظل ... ومع الثقيل السمج الأقتم الظل لم يكن سيد درويش يستطيع أن يسبل عليه من الحسن إلا بمقدار ماتستطيع شركة السكر أن تبعث الحلاوة في ملاحة رشيد ...

وكان سيد درويش رحمه الله يعارك الثقلاء من أبطاله ، ويسبهم ويلعنهم ، وكان يثور على بعضهم ويضربهم لكي يطاوعوه ويسايروه ، ويحملوا أرواحهم على التأثر بروحه ، وأذواقهم على التبسط في الغناء والتمثيل ، وترك الشعوذة والتطريب ، ولكنه لم يكن يجني من هذا كله إلا أن يحترق دمه وأن تتهدم أعصابه ، ويظل الثقلاء من أصحاب الفرق وكبار المغنين ... على ما هم عليه من فساد الذوق و « العصلجة » ، فكان المسكين لا يرى بداً في بعض الأحيان من أن يعطيهم موسيقى تروق لهم هم ، وتروق الناس أيضاً ، ولكنه هو كان أول من يعرف أن عنده خيراً منها وأروع ...

أما حين وضع سيد درويش ألحان « العشرة الطيبة » فقد كان حراً متحرراً من كل قيد ، ومن كل اعتبار خارج على إرادته

ذلك أن نجيب الريحاني كان له في ذلك الوقت فرقتان ، فرقة كان يلعب بها « كشكشيانه » الرشيقة وفرقة أخرى أسلمها لعزيز عيد يخرج بها فناً دسماً . وكانت رواية تيمور هذه أول ما وقع عليه اختيار هذه الفرقة ، وكان بديع خيري إذ ذاك لا يزال يشق طريقه إلى مجده الفني الزاهر فلما عهد إليه بوضع أزجال هذه الرواية بثها روحه كلها لم يقتصد ولم يدخر وسعاً في إجادتها والتأنق فيها ، فلما تسلم سيد درويش هذه الأزجال ليلحنها حراً أعطاها هو أيضاً كل نفسه ، لم يقتصد كذلك ولم يدخر وسعاً في إجادتها والتأنق فيها . ولم يزل الريحاني ينفق على « بروفات » هذه الرواية الأشهر الطويلة حتى اكتمل ما أنفقه ألف جنيه ، فضج وراح يزور هذه البروفات ليرى أي شيء فيها يستدعي هذا التريث كله ، وهذه النفقات كلها ... ولم تشعر به الفرقة وهو يتجسس عليها متسمعاً لأحد ألحانها ، ولكنها شعرت به عند ما فرغت من ذلك اللحن وهو يقول موجهاً الحديث إلى عزيز عيد : « لقد كان في عزمي أن أضع اليوم حداً لهذا الإسراف ، ولكني بعد ما سمعت هذا اللحن أراني مضطراً إلى أن أتركك وشأنكم فليس هذا الذي تصنعونه بالشيء العادي »

وقد كان نجيب محقاً ، فالعشرة الطيبة من غير شك معجزة

وهنا قد يسألني سائل : لماذا كانت العشرة الطيبة (درويشية) أصفى من شهرزاد والبروكة ، مع أن هاتين الروايتين الأخيرتين قد وضعهما سيد درويش لنفسه ولفرقته لم يتقيد فيهما هما أيضاً بقيد ، ولم يراع فيهما ذوق أحد غير ذوقه الخاص ؟

وإجابة عن هذا السؤال نقول : إن سيد درويش لحن العشرة الطيبة في أوائل حياته الفنية أو في أواسطها ، بينما لم يلحن شهرزاد والبروكة إلا قبيل وفاته . وقد حدث أن تأثر سيد درويش بعد العشرة الطيبة بالأساليب الغربية في الإلقاء المسرحي ، وقد ظهر هذا التأثر واضحاً جلياً في ألحان رواية البروكة الغربية الحوادث

والأبطال ، كما ظهر هذا التأثر باهتاً غير جلي في ألحان شهرزاد . وليس هذا التأثر بالروح الغربية مما يعيب هاتين الروايتين فلا يزال تقليد الغربيين في الفن الشرقي هو مقياس الفلاح ، ولكنني أنا الذي أكره هذا التأثر ، كما أحب أن أجد عند كل فنان مصري روحاً مصرية خالصة ؛ هي من غير شك مهما هانت وتواضعت ، لن تكون إلا أصدق من روحه إذا قلد بها الغربيين وأساليبهم .

ولكن سيد درويش كان معذوراً في التفاتاته للموسيقى الغربية وآلاتها وأدواتها وطرائقها وأساليبها ، وتوزيع الأصوات فيها ، فقد شاءت الظروف أن يكون هو الموسيقي المصري الذي ألقت عليه النهضة المصرية أعباء الفن ليثب به من حالة الركود والإنشاد التي سبقته إلى حالة الحياة والصخب والتدفق والتفرع والشمول التي كانت على أيام سيد، والتي يريد من جاءوا بعد سيد أن تكون على أيامهم .

فلو أن سيد درويش عاش أكثر مما عاش لكان قد استتب له تقرير ما يصلح أخذه من الأساليب الغربية في الموسيقى واصطناعه في موسيقانا ، ولكان قد أدرك أنه لا يقل شيئاً عن وجتر ونردي وغير هذين من أعلام الموسيقى الذين كان يتوق دائماً إلى أن يكون في صفهم ، ولم يكن إلا في صفهم بمواهبه وصفاء روحه، وإن كان قد أعوزه ما لم يعوزهم من التثقيف الفني الذي لا يعدو أن يكون حساب الموسيقى وتطريزها لا الموسيقى نفسها ...

ولنعد الآن إلى استوديو مصر لنسأله : هل صحيح ما نشرته بعض المجلات من خبر اعتزامه إخراج العشرة الطيبة ...

أما إذا كان هذا الخبر صحيحاً فإنه خبر يغتبط له الشرق كله لا مصر وحدها . وإن لنا عند صحة هذا الخبر رجاء نتجه به إلى استوديو مصر ورجاله وهي أن يشترك عزيز عيد ونجيب الريحاني معاً في الفلم على أي نحو وعلى أي وجه ، فلهما من خبرتهما وذكرياتهما — على الأقل — ما نطمئن به على أن تعود الحياة إلى العشرة الطيبة على النحو الذي أراداه لها مع صاحبها ...

والله الموفق .

عزيز أحمد فهمي

عبقرية الشريف الرضي

للدكتور زكي مبارك

ظهرت الطبعة الثانية من كتاب « عبقرية الشريف الرضي » في رونق جميل ، وفي ورق فاخر ، برغم غلاء الورق ، رعاية لمقام الشاعر العظيم الذي تفرد باجادة التعبير عن أوطار المزائم والأرواح والقلوب

وكتاب « عبقرية الشريف الرضي » هو فنّ مبتكر في تشريح أغراض الشعراء ، وسيكون له تأثير شديد في توجيه الدراسات الأدبية . وهو أيضاً صورة ناطقة لمشكلات العقل العربي والاسلامي في النصف الثاني من القرن الرابع : فهو سناد المؤرخ ونبراس الأديب . وتمتاز الطبعة الجديدة بزيادات وتحقيقات تفصل في شؤون طال حولها الخلاف

يقع هذا الكتاب في جزأين كبيرين وثمنهما معاً ثلاثون قرشاً ، ويطلب من المكاتب الشهيرة في البلاد العربية